Annals of letters and languages حوليات الآداب واللغات
ISSN 2335-1969 E.ISSN 506X - 2602
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

مجلة علمية دولية محكمة . كلية الآداب واللغات . جامعة محمد بوضياف .المسيلة الجزائر

المجلد 11 عدد 02: سبتمبر 2023 صفحة من : 09 إلى 27

المسلك الحجاجيّ في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم للنجاشي - دراسة في ضوء نظريّة المسالك والغايات

The pilgrimage path in the book of the Messenger, may Allah bless him peace, by Al-Najashi – a study in the light of the theory of paths and goals

المرلف الأول د أحمد نتوف
جامعة قطر – قسم اللغة العربية nattofahmad@qu.edu.qa

Article info معلومات المقال

تاريخ الاستلام 2023/07/08.
تاريخ القبول :2023/07/28.
تاريخ النشر:2023/09/15

الكلمات المفتاحية
الخطاب ، المسالك ، الغايات ، المرجعية ، المقصد، الحجة، الإيتوس، الباتوس، اللوغوس

Abstract ملخص

تعنى هذه الدراسة بتطبيق نظرية حديثة في تحليل الخطاب على رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة، والنظرية هي المسالك والغايات، وهي تعنى بكشف مرجعيات الخطاب، ومسالك بنائه وتأليفه، كما تفصّل الكلام في الحجج التي استخدمها منشئه في أثناء البناء والتأليف، وتوضح المقاصد والأغراض التي يرمي إليها. ويكتسب النموذج الذي اختارته الدراسة للتطبيق أنه من الخطابات الأولى التي وجهها المسلمون إلى الآخر البعيد مكانيًا والمختلف دينًا. وفي المرجعيات جرى الحديث عن المرجعية التخاطبية والو اقعية والنصية، كما فصل البحث في المسالك البنائية والتأليفية، إضافة إلى تفصيل أنواع الحجج المستخدمة وبيان طر ائق اشتغالها للتأثير في المخاطَب.

This study is concerned with the application of a modern theory to analyse the discourse of the Prophet (PBUH), to the Negus, King of Abyssinia. The theory itself represents the methods and objectives. It is concerned with revealing the references of the discourse, and the paths of its composition and authorship, as well as detailing the discourse in the arguments used by its creator during the processes of composition and authorship and clarifying the aims and purposes to which the discourse is intended. Perhaps the model chosen by the study is of great importance as it is one of the first discourses that Muslims addressed to the spatially distant and different religiously different others. In the references, we talked about the conversational, realistic and textual preference, and how much research has detailed the structural and authorial methods.)

Key words (05)
Pilgrimage- Discours- Paths- References- Conversational

المؤلف المرسل [1] د. احمد نتوف

. مقدمة:

من بين الرسائل المهمة في بداية تأسيس دولة الإسلام ما بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملوك الأرض في فارس والروم ومصر والحبشة وغيرها، وتنبع أهمية هذه الرسائل من كونها تشكّل الخطاب الإسلاميّ الأوّل الموجَّه إلى الآخر، وعن طريقها ظهرت للآخر صورة الدين الجديد من حيث المحتوى والشكل وطريقة الدعوة والسياسة، وكذلك يظهر من خلالها مدى القوة التي بلغها في مختلف المجالات غبان ظهور الخطاب. وفي هذه الدراسة تحليل لنموذج منها؛ وهو كتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي ملك الحبشة، وذلك وفق نظرية من نظريات تحليل الخطاب الحديثة هي نظرية المسالك والغايات، وهي نظرية تنظر إلى مرجعيات الخطاب ومسالك بنائه وغاياته، وطريقة بناء حججه كما سيتبين للقارئ فيما يأتي.

اختارت الدراسة نظرية المسالك والغايات لأنها نظرية حديثة الظهور، وهي في مرحلة إثبات جدارتها بالقدرة على النفاذ إلى نص الخطاب ومساءلته عن كلّ ما يتعلّق به من مرجعيات وطريقة بناء وحِجاج وغايات، وفي هذا السياق لا بدّ من الإقرار بأن إجراءات تطبيق هذه النظرية واضحة ومحدّدة، ولكن الدراسات التطبيقية التي أجريت في ضوئها لم تكن كثيرة، ولذلك يصعب الحكم الإجمالي على قدرتها وجدواها، وهذه الدراسة خطوة في هذا الطريق .

يمكن لمحلل الرسالة أن يقول بداية إن كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم قد صدر من مخاطِب وتوجَّه به إلى مخاطَب، يجمعهما زمان واحد وسياق ما، وهذا السياق هو الذي يساعد على تحليل الرسالة وكشف مسالك الحجاج فيها. ولو حاولنا أن نحدد معالم هذا السياق لرأينا أن هناك مجموعة من العناصر المشكلة له، ومنها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وقد أُرسل بالدين الجديد إلى الناس، وهذا يعني أن له أتباعًا مؤمنين به، ومخالفين منكرين لرسالته، وأن هناك خصومة بين الجهتين، والمكان الذي أَنتج فيه صاحب الخطاب خطابه قد استقر على الإقرار بقوة صاحب الخطاب ومكانته في قومه وأتباعه، وهم المسلمون، مما أهله أن يرسل هذه الرسالة إلى ملك دولة أخرى بعيدة مكانيا يدعوه فيها إلى اتباع الدين الجديد، والعنصر الثاني في السياق هو مملكة الحبشة التي هي مملكة لها وجود ونظام سياسي ودين مُتّبع، كما أن لها حاكمًا له مكانته، وقد أنبأتنا رسالة المخاطِب ببعض مظاهر هذه المكانة من كون المخاطَب موصوفًا بصفة (ملك الحبشة) وهذا إقرار من الطرف الأول للثاني بهذه الصفة المستحقّة، كما أن هناك علامة نصية تفيد بوجود جنود للملك وأن الرسالة تستهدفهم أيضًا .

وعلى هذا يتبين لنا أن الرسالة أنشئت في الزمن الماضي عقب ظهور الإسلام، في حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، أيام كان النجاشي ملكًا للحبشة، حيث كان لذلك الملك جنود ودين يتبعه الملك وأهل مملكته، ولم يصرح المخاطب باسم ذلك الدين، وإنما أوحى استشهاده بموقف الإسلام من عيسى عليه السلام وأمه بأن الدين هو النصرانية.

وبالعودة إلى قراءة هذه الرسالة في ضوء نظرية المسالك والغايات يمكن للمرء أن يسأل عن أصول هذه النظرية ومفاهيمها الرئيسة وإجراءاتها التطبيقية في التحليل.

– 2. نظريّة المسالك والغايات وتجاوز المعنى:

تتبع نظرية المسالك والغايات وتجاوز المعنى الحقل المعرفي: تحليل الخطاب تداوليًّا. وقد وضّح أسسها الباحث الليبي الدكتور محمد محمد يونس في كتاب بعنوان "**تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو بناء نظريّة المسالك والغايات**"[1] وهدفه من هذا الكتاب بيان الطريقة التي تتم بها عملية التخاطب بين منتج الخطاب ومستقبِله، وفيها يكون هذان الطرفان سببًا لتحريك أقطاب ثنائيات متعددة؛ مثل: ما قبل الخطاب وما بعده، مقصد الخطاب وغرضه، معنى الخطاب وغاية الخطاب، وقد تنوعت المصطلحات التي استخدمها في التحليل بين التراثي والمعاصر.

والهدف الرئيس لهذه النظرية هو الخروج من قيد اللفظ والمعنى الذي استغرق دراسات النصوص وحبسها في إطار هذه الثنائية، والانتقال إلى تحليل الخطاب بالنظر إلى مرجعياته وإحالاته وغاياته؛ فالمرجعيات التي تُهمَل عادة في دراسات اللفظ والمعنى جزء مهم من الأجزاء التي تكشف أسباب الخطاب وارتباطاته بما هو خارجه من واقع وسياق ومفاهيم سائدة وعلامات راسخة وأصول تخاطبية.

وفي إطار الحديث عن تحليل الخطاب يجري التنويه عادة إلى علاقة الخطاب بالعالم الخارجي، وأن لغة الخطاب هي الأداة التي يلوذ بها منشئ الخطاب لإحداث التأثير والوصول إلى التغيير، ولا شك في أن أي خطاب تتحقق فيه شروط الخطاب سيحدث فرقًا بين ما قبل الخطاب وما بعده، وأن بعض الخطابات تبقى في ذاكرة القارئ والذاكرة الجمعية عموما أكثر من خطابات أخرى بالنظر إلى مجموعة من المرتكزات، أهمها قيمة منشئ الخطاب والجمهور المستهدَف به، ومدى أهمية محتوى الخطاب لدى الجمهور أيضًا، وارتباط هذا الخطاب بالمرجعيات الثقافية والقوانين المؤسسة للأمة التي تنتقل من جيل إلى جيل وتترسخ أكثر إذا امتدّ بها الزمن.

وبناء على الإقرار بالعلاقة بين اللغة والعالم؛ سيجد المرء أن لغة الخطاب تستلزم أن المخاطب يأخذ ألفاظ خطابه وتراكيبها من النظام اللغوي الذي تستعمله الجماعة اللغوية، وكذلك هو يخاطب أفرادًا يعيشون في العالم الذي يضمّ طرفي الخطاب، ومن أجل هذا كان البحث عن المرجعيات التي ينطلق منها الخطاب يؤسس لفهم أعمق للخطاب ومعرفة لبواعثه وغاياته، ومن هذه المرجعيات: "**المرجعية التخاطبيّة**"، وهي

تتعلّق بالكفاية التخاطبية للمتكلم، و"**المرجعيّة الواقعيّة**" وهي تتعلّق بإدراك العلاقة بين محتويات الخطاب ومحتويات العالم، و"**مرجعيّة النص**" وتهتم بإدراك العلاقة بين الجملة ومجمل سياق النص، أو مجمل النص في سياق نص أوسع منه قد ورد فيه. و"**مرجعيّة المحيط**" التي تستلزم معرفة ما يجري في المحيط الفيزيائي الذي أنشئ فيه الخطاب[2].

وحين ينشئ صاحب الخطاب خطابه لا بد أن يبنيه وفق مسلك ما؛ وفي هذه النظرية لا بد من الوقوف على المسالك البنائية والتأليفية التي اعتمدها المخاطِب ليبين عن مقاصده وأغراضه وغاياته؛ فالمخاطِب لا ينشئ نص خطاب لمجرد الإنشاء، أو لغايات جمالية بحتة، وإذا حدث مثل هذا فالنظرية لا تفضّل خطابات على هذا النّحو، وإنما تركز على الخطاب بوصفه بنية قصدية إعلامية، ولعلّ ذلك يتّضح من خلال تحليل كتاب الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلم للنجاشي، ولتحليل هذا الكتاب سيبدأ البحث بإثبات نصه ثم الشروع في بيان مرجعياته ومسالكه ومقاصده وغاياته.

نصّ الرسالة:

رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي:

"ذكر البيهقي، عن الحاكم عن أبي الحسن محمد بن عبد الله الفقيه بمرو : حدثنا حماد بن أحمد حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق قال بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، وكتب معه كتابا: " **بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله ، إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي، وبالذي جاءني؛ فإني رسول الله، وقد بعثتُ إليكم ابنَ عمي جعفرا، ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فاقرهم، ودع التجبّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى**" [3].

أولًا: مرجعيات الخطاب في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي:

1. المرجعيّة التخاطبيّة:

يقصد بالمرجعية التخاطبية "ما يساعد متلقّي الخطاب على الحمل الصّحيح للوقوف على مراد المتكلّم، وهو أمر غير ممكن دون إحاطة المخاطَب بالمعطيات الوضعية للغة التي وقع بها التخاطب، وانتباهه للقرائن الداخلية والخارجية التي نصبها المخاطِب"[4]، ولكي تتحقّق عملية التواصل في أفضل صورها لا بدّ من وجود ما يسمّى الكفاية التخاطبية، التي تجعل المخاطِب والمخاطَب متّفقين على دلالة ألفاظ الخطاب

على مدلولاتها، ومن غير هذه الكفاية ستكون عملية التخاطب فاشلة، والكفاية هنا تعني التمكّن من اللغة والقدرة الذهنية على استعمالها مفردات وتراكيب وفق نظامها الصّرفي والصّوتي والتّركيبي والدّلالي، وأما الأداء فهو التحقّق الفعلي لهذه الكفاية.

وفي رسالة الرسول الكريم نجد أنّ المخاطِب اختار اللغة **المكتوبة** للتعبير عن مراده (رسالة مدوّنة على ورق)، وهي اللغة العربية بحسب ما وصل إلينا من المصادر، وبحسب بنية الرّسالة، وبالنظر إلى كون الرسالة بالعربية وأن المخاطِب بها من الناطقين بها، ولكن بالنظر إلى المخاطَب نفترض أنه من الناطقين بغيرها، وعلى هذا يمكن الحكم ظاهريًّا على أن المرجعية التخاطبية غير متحقّقة هنا؛ فالمخاطَب إذا لم يكن يعرف لغة الخطاب فلن يدرك دلالة مفرداته وجمله ومراد صاحبه منه مباشرة، ولكننا بالرجوع إلى المصادر نجد أن النّجاشي كان يعرف اللسانَ العربي، ففي الحديث الذي يرويه أحمد في مسنده عن أمّ سلمة في قصّة الهجرة إلى الحبشة نجد أن النجاشي كان يتحدّث العربية، وكان يستخدم مفردات من الأمهرية في حديثه كقوله: ((اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي))[5] .

اختار المخاطِب اللغة العربية لخطابه، والمخاطَب الذي لا تشير الآثار إلى أيّ مستوى كان يتكلم العربية، كان قادرًا على الاستعانة بمترجمين؛ فهو ملك وله حاشيته وأعوانه. وفي الوقت نفسه نحن نشترك مع المخاطِب في هذه المرجعيّة التخاطبيّة التي ستمنحنا القدرة على تحليل خطاب رسالته.

وفي المرجعية التخاطبية للرسالة يُنظر عادة إلى وضوح الخطاب وتماسكه وملاءمته للسياق الاجتماعي والسياسي والثقافي، ومتابعة رد المخاطَب على الخطاب، إلى جانب بيان ما تتضمنه الرسالة من المعاني والاستنتاجات، وما يفهم من منطوقها ومتضمنها وأصول التخاطب التي تشتمل عليها؛ وفي الرسالة ما يأتي:

1. البسملة، ومنطوقها البدء باسم الله مع ذكر صفتين من صفاته، ومتضمّنها أن المخاطِب مؤمن بالله ومنفّذ لتعاليمه، والكفاية التخاطبية تقتضي من المخاطَب العلم بإيمان صاحب الرسالة بدين، وأن هذا الدين يقتضي وجود إله، وأن من صفات هذا الإله الرحمة بدلالة اللفظين عليها (الرحمن، الرحيم) كما يقتضي علم المخاطَب بآداب الخطاب لأتباع هذا الدين من البدء بالبسملة.
2. وقوله: (من محمد رسول الله) منطوقها اسم المخاطِب وصفته، ومتضمنها إعلام بأنه النبيّ، والكفاية التخاطبية تقتضي من المخاطَب العلم بأنَّ المخاطِب يبيّن أنه رسول لله، وأيضًا الاستعداد لتلقّي مضمون الخطاب بالنظر إلى هذه المعلومات المؤسسة.
3. قوله: (إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة) منطوقها بيان المخاطِب للطرف المخاطَب وصفته، وتتضمن إقرار علم المخاطِب بمُلكه، والكفاية التخاطبية تفيد بعلم الطرف الثاني بأن الطرف الأول مقرٌّ بملكه على الحبشة.

4. قوله: (سلام عليك): منطوق العبارة أن المخاطِب يذكر موقفه من المخاطَب، وهو السلام والمسالمة، ومتضمنها إقرار الطرف الأول بموقفه وهو السلام، والكفاية التخاطبية تقتضي أن الطرف الثاني مدعو إلى مبادلة السلام بالسلام، وقد وردت بلفظ(سلم أنت)في بعض المصادر كالمصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي لابن حديدة.

وهكذا يمكن الحديث عن كل أجزاء الرسالة وعباراتها. مما يبين معرفة الطرفين بمعاني مضمون الخطاب وأبعاده الخطابية، ويذكر هنا أن الكفاية التخاطبية بالنظر إلى أهمية الكتاب وكونه من مخاطِب بلغ من الشّهرة والمكانة في العالم إبّان إنتاج رسالته مكانة تقتضي استعدادًا عاليًا ووعيًا تخاطبيًّا من المخاطَب به، لا سيما أن به تقرير مصير أمّة هو يحكمها، وهو مسؤولٌ عن قرارها، ولا يستطيع تجاهل هذا الكتاب الذي أُرسل إليه.

2. المرجعيّة الواقعيّة:

في لغة الخطاب ما يحيل إلى الواقع؛ لأنّ الخطاب لا يأتي من فراغ، بل هو نتيجة أحداث سبقت ظهوره، ولغة الخطاب التي انطلقت من العالم الواقعي السّابق للخطاب ستكون غايتها إحداث تغيير في هذا العالم الواقعي، أو يمكن القول إنها محاولة لإعادة ترتيبه بناء على ما يحدثه الخطاب من أثر في المخاطَب، ولذلك لا بد من بيان المرجعية الواقعية للخطاب، لا سيما أنها كما يرى يونس تجعل الخطاب مفيدًا ، كما أنها الحاضنة له، والمرجع الذي يستند إليه المخاطَب في تعامله معه[6]، وقد نقل عن بربارا: ((ينشأ الخطاب من العالم أو العوالم التي يفترض وجودها خارج الخطاب؛ أي عوالم محدِثي الخطاب ومفسريه))[7]؛ فالخطاب كما يتشكل من الواقع كذلك يُسْهم هو في إعادة تشكيل الواقع.

وفي الرسالة إلى النجاشي نلمح المرجعية الواقعية تظهر في بعض العلامات التلفظية، ومنها:

1. شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم؛ فالخطاب يبيّن أنّه رسول الله، وأنه حيّ، وأنه منشئ الخطاب، وتظهر من عبارة (من محمّد رسول الله) مكانته الدينية والسياسية.
2. وفي العلامة التلفّظية: (إلى النجاشي بن الأصحم ملك الحبشة) يظهر أن هناك ملكًا للحبشة، وأنّ اسمه النجاشي بن الأصحم، وأنّه المعني بالخطاب، وكونه ملكًا يقتضي أن هذا الخطاب يقصده مباشرة، ويستهدف التابعين له من أهل مملكته؛ ويقتضي هذا أن أهل مملكة الحبشة لم يكونوا مسلمين مؤمنين بما جاء به النبي الكريم ساعة وصول هذا الخطاب إلى ملكهم، وكذلك يقال عن ملكهم بحسب ظاهر الخطاب المرسل إليه، وإن كان قد تبين فيما بعد من ردّه على رسالة الرسول الكريم أنه كان قد آمنَ بالنبيّ الكريم وبرسالته.
3. وفي العلامة التلفّظية: (سِلْمٌ أنتَ) إشارة إلى أن المخاطبات بين الدول كانت تقتضي أن يظهر المخاطِب موقفه من المخاطَب وتابعيه.

4. وعبارة (فإني أحمد إليك الله الملك القدّوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه) تحيل إلى واقع فيه معرفة بنبي الله عيسى عليه السلام وإشارة إلى المعروف من هذه القصة بحسب نص الكتاب الذي أنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وافتراض أن المخاطَب وقومه لديهم اهتمام بمعرفة موقف المخاطِب ودينه وقومه من عيسى وأمه ودينهما، وحقيقة ما جرى لهما عليهما السلام، وفي ذكر صفات الله التي وردت في العبارة إحالة إلى ما هو في واقع الأمّتين: المسلمة التي تؤمن بهذه الصفات، والنصرانية التي يوحي ذكر هذه الصفات منسوبة لها بأنها قائمة بالفعل في صلواتها ومأثوراتها الدينية، كما أن التذكير بآدم إحالة إلى ما هو في معتقدات الأمّتين.
5. وفي بقية الخطاب: (وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعَني فتؤمِنَ بي ، وبالذي جاءني ؛ فإني رسول الله ، وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فاقرهم، ودع التجبّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلَّغْت ونصحتُ، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى) إحالات إلى الواقع؛ فالرسول الكريم صاحب دعوة جديدة ويتبعه الناس، وكذلك إحالة إلى القرآن الكريم الذي جاءه من ربّه، وكذلك ثمّة رجل اسمه جعفر يبيّن الخطاب أنه ابن عمّ النبيّ الكريم، ومعه جماعة من أصحاب النبيّ، وهم مسافرون من حيث يقيم المخاطِب إلى بلد المخاطَب، وكذلك إحالة إلى جنود الملك النجاشي.

وبتصور المرجعية الواقعية للخطاب يمكن – بما تتيحه اللغة التي صنعت الخطاب — الوصول إلى استحضار جزئي للمقام الحسّي للخطاب، وعناصر هذا المقام من مكان وزمان وأشخاص وموضوع، كما يمكن تصوّر الوضع الذي كان عليه الواقع قبل حدوث التخاطب بهذا الخطاب. وما هي أغراض الخطاب التي تستهدف الواقع.

3. المرجعيّة النصية:

يقول محمد يونس: "عادة ما يكون الخطاب الشامل سياقًا ثقافيًا عامًّا لأجزائه المكوّنة له، ومن ثمَّ لا يمكن أن ننظر إلى قولة أو تصريح ما بمعزل عما يقتضيه الإطار العام للنصّ الذي يشكل المرجع المفسّر لتلك الأجزاء، وممّا يحتاج إليه مُحلّل الخطاب النظر في السّياق العامّ للنصّ"[8]، ونصّ الرسالة هنا على الرغم من أنه واضح الحدود، بدايته ونهايتُه معروفتان، وقد نقله إلينا عدد من المصنّفات تنتمي إلى حقول معرفية متعددة، منها حقل رواية الحديث؛ إذ ورد في مسند أحمد بن حنبل، وهذا يعني أنّ له سندًا ومتنا، وما أثبتناه إنما هو مأخوذ من كتاب يجمع فيه صاحبه رسائل العرب ويصنفها تاريخيًّا، ولا يهمل أن ينسبها إلى المصادر التي وجدها فيها، وقد قدم المؤلف للرسالة بقوله: ((وبعث صلى الله عليه وسلم عمرو بن أميّة الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة سنة ست، وبعث معه كتابًا فيه:))[9]، وبعد أن أورد الرسالة ذكر مصادرها وهي:

السيرة الحلبية[10]، وتاريخ الطبري[11]، وصبح الأعشى[12]، وأسد الغابة[13]، وإعجاز القرآن[14]، والمواهب اللدنية للقسطلاني[15]، وشرح الزرقاني[16]. وكما هو ظاهر من العلوم التي تتبع لها هذه المصادر فإن المرجعية النصية تعود إلى سياق التاريخ، والثقافة العامة، وتراجم الرجال، وحقل بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، ورواية الحديث وشروحه.

وهذا يعني أن الرسالة تنتمي إلى أكثر من سياق نصّيٍ واحد، والأظهر من هذه الحقول هو الحقل السياسي، فلبوس الرسالة سياسيّ، وهي خطاب من نبيّ مرسل إلى أحد الملوك، والبحث عن المرجعية النصية السياسية يقتضي مراجعة النصوص وأصول التخاطب السياسي في زمن إنتاج الخطاب، ويمكن أن يسجّل أن الرسالة لم تكن مخالفة لنمط الرسائل التي كانت سائدة في ذلك العصر، ولو كان فيها شيء مخالف لظهر على نمط اعتراض أو انتقاد، ونحن لم يصلنا شيء من هذا القبيل.

وبالعودة إلى نص الرسالة نفسها من الداخل نجد أنّها نصّ ينتمي إلى جنس الرسائل أيضًا، ففيها مقدمة الرسالة بذكر البسملة، ثم ذكر المرسل، ثم ذكر المرسل إليه، ثم موضوع الرسالة ولبّها، ثم خاتمة الرّسالة بطلب سماع النصيحة، والسّلام على من اتبع الهدى. وقد سميت رسالةً في عدد من المصادر، كما أطلق عليها اسم كتاب، وأيًّا ما يكن الاسم الذي سميت به، نجد حضور عدد من النصوص في الرسالة: إذ يحضر فيها نص من القرآن يتمثل بصفات الله عز وجل التي ذكرت، وكذلك ما ذكر من قصة عيسى وأمه عليهما السلام؟

ثانيًا: مسالك الرسالة: في الحديث عن مسالك الخطاب (الرسالة) تتناول النظرية أنواع المسالك التي يتبعها المخاطِب في خطابه؛ وهي مسالك بيانية؛ وتتضمن المسالك التصريحية والتلميحية، والمسالك الموقفية، حيث ينبني الخطاب عادة على مواقف (التحذير، الإرشاد، التهديد، التوضيح، الإذعان، الإعلان، ..)، وهناك أيضًا المسالك البنائية التي تشتمل على عنصرين: مسالك النظم على مستوى الجملة، ومسالك التأليف على مستوى الخطاب بأكمله، يضاف إلى ذلك مسالك السوق، والمقصود بها نصب قرينة للمخاطب لدفعه إلى معنى معين من الخطاب واستبعاد ما يمكن أن يكون من المعاني الأخرى عن طريق القرائن الداخلية والخارجية للخطاب[17]، ولا يتسع المجال للحديث عن جميع هذه المسالك، ولذلك سيتناول البحث المسالك البنائية:

1– المسالك البنائيّة:

أ– مسلك النظم

"يقصد بالنظم هنا ضمّ عناصر الكلام في الخطاب بعضها إلى بعض وتعليق كلّ جزء من أجزاء الجملة بغيره من الأجزاء، ويشمل الرصف linearization والتموضع thematization والاستبدال substitution"[18]. ينتظم المسلك النظمي وفق ثلاث عمليات رئيسة يقوم بها المتكلّم عند سلك هذا المسلك وإظهار كلامه إلى الوجود، وأولى هذه العمليات **الرصف**، حيث يظهر كلام المخاطب متراصفا في

اتجاه خطي بحسب عبارة يونس، ويخضع الرصف عادة إلى المرجعيّة التخاطبيّة المتعلقة باللغة والوضع القواعديّ. وقد بدأت الرسالة بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) والجار والمجرور فيها متعلقان بفعل محذوف على قول الكوفيين أو باسم محذوف كما يقرّر البصريون[19]، وتلا اسم الجلالة ذكر صفتين له هما (الرحمن) و (الرحيم)، ثم بدأ جسم الرسالة بذكر مرسلها بقوله (من محمد رسول الله إلى النجاشي بن الأصحم ملك الحبشة) وهذه الجملة بدأت بالجار والمجرور المتعلقين بفعل محذوف أو باسم يكون خبرا لمبتدأ محذوف، ولوضوح أمر المحذوف لم يذكر سواء في البسملة أو في ذكر المرسل والمرسل إليه، ثم شرعت الرسالة بذكر فعل منسوب إلى المرسل (أحمد إليك الله) وهو بصيغة المضارع، وفيه يلوح المتكلم الفاعل وقد حذف ضميره وجوبًا، ثم أتبع ذلك بذكر ما موقعه المنصوب بالفعل وهو لفظ الجلالة، ثم ذكر عددًا من الصفات لله عزّ وجلّ، ثم أنشأ جملة فعلية أخرى معطوفة على الجملة الفعلية السابقة؛ وهي قوله: (وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته) ، ثم فرّع منها جملة أخرى، تابعة لهذه الجملة؛ وهي ما وصف به (كلمة الله)، وبعد انتهاء التفريع عاد إلى إنشاء جملة رئيسة أخرى معطوفة على الجملتين الأوليين؛ وهي قوله: (إني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني فتؤمن بي، وبالذي جاءني)، وقد بنيت هذه الجملة على الاسمية بحرف التأكيد (إن) المسند إلى ياء المتكلم، وبعده جاء المضارع المسند إلى المتكلم أيضا، وقد ألحق به ضمير الخطاب الكاف، وبعد ذلك جاء لفظ الجلالة مسبوقًا بالجار (إلى) وهما متعلقان بالفعل (أدعوك)، ثم ذكر ما عبّر به عن وحدانية الله عز وجل (وحده، لا شريك له) مرّتين للتأكيد، وهذا هو المطلب الأول من مطالب المخاطِب، ثم ذكر المطلب الثاني؛ وهو الموالاة على طاعته بصيغة المصدر، معطوفا على المطلب الأول، ثم ذكر المطلب الثالث؛ وهو بصيغة المصدر المؤول (أن تتبعني)، وقد عطف عليه ما يفسره بقوله (فتؤمن بي)، وفرّع عنه الدعوة إلى الإيمان بما جاء النبي من غير تصريح بهذا الذي جاء، ثم بدأ جملة جديدة كأنها جواب وتعليل لسبب هذه المطالب، وهو قوله (فإني رسول الله)، وقد جاءت جملة اسمية، ثم استأنف كلامًا آخر يتعلق بمن أرسلهم من أتباعه إلى الحبشة. وكأنها معترضة بين كلام يأتي من بعد جاء على صيغة الأمر (ودع التجبّر)، ثم جاء بجملة على صيغة المضارع (فإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل)، ثم انتقل إلى جملة فعلية بدأها بواو الاستئناف وحرف التحقيق(وقد بلغت)، وعطف عليها جملة (ونصحت) التي تعطي دلالة مغايرة، وختم بطلب قبول النصيحة بصيغة الأمر المسند إلى المخاطب (فاقبلوا نصيحتي)، وفي النهاية ذكر جملة ختامية اسمية (والسلام على من اتبع الهدى). وبالنظر إلى مكوّنات الرّصف الذي انتظمت الرسالة وفقها، نجد أن الرسالة اعتمدت على الذكر والحذف، وعلى الجملتين الاسمية والفعلية، وهي وفق قواعد النظم العربي. ثم يتوالى الرصف شيئا فشيئا مراوحًا بين خيارين التزم بهما المخاطِب وهما الخبر والإنشاء. بدأ بالجملة الدعائية (سلام عليك) واعتمد الخبر على الإثبات، وجاء الإنشاء على صيغة الأمر (اقرهم، دع التجبر، اقبلوا نصيحتي)، والفعل الأول متعلق بحق المسافر على أهل المنزل وهو القِرى، والثاني متعلق بالمخاطب من صرف ذهنه عما يمكن أن يتوهّم قدرته القيام به وهو التجبر والعناد، والثالث دعوة المخاطب لقبول النصيحة.

وأما ما يتعلق بالاستبدال substitution فقد اختار المتكلم عددا من العلامات التلفظية فضلها على ما يمكن أن يحلّ مكانها من غيرها، من ذلك مثلًا اختار (سلام عليك) ولم يقل (السلام عليكم) على الرغم من أن الثانية هل الأشهر، وهي تحية الإسلام، ولكن تنكير السلام وإفراد الضمير عليك مقصود، ولعله من أجل تذكير المخاطب بمحدودية قوّته أمام الذي يستند إليه المتكلم، وكذلك ذكر من صفات الله ما يوحي بأنه اصطفاها من بين عشرات الصفات؛ فاختار (الملك) ويناسب أن يُذكَّر الملك المخاطَب بأن الملك الحقيقي هو الله، و(القدوس) وهو الطاهر المنزّه عن كل عيب، وفي هذا تنبيه للملك وشعبه على العقيدة الصحيحة، ونفي ما يعتقده بعض النصارى من ألوهية عيسى عليه السلام. و(المؤمن) ومن معاني هذا الاسم: المصدّق لرسله بإظهار معجزاته عليهم، وفي هذا أيضا تلميح إلى معجزة خلق عيسى وإجراء الكرامات على يديه، و(المهيمن) ومن معانيه: الشّهادة، والحفظ، والعطاء، والمنع، والرقابة على الخلق، والقيام على شؤون العالمين. واستخدم صفة (البتول) لمريم عليها السلام، دون أن يترك الاسم وحده خاليا من الصفة لأن إظهار هذه الصفة مما يُطمئِن المخاطَب بالنظر إلى عقيدته ودينه.، ثم حشد لها من الصفات: (الطيبة الحصينة) فاختار هاتين الصفتين دون غيرهما لما لهما من تأكيد براءة مريم عليها السّلام مما رميت به من التهمة، وجعلهما معرفتين للتعيين والتأكيد، واستخدم الفعل (خلقه من روحه ونفخه) كما استخدمه مع آدم عليه السلام (خلق آدم بيده ونفخه)، واستخدم من صفات الله (الواحد) و(لا شريك له) دون غيرها من الصفات لأنّ الشّائع أنّ بعض النصارى في زمن ظهور الإسلام كانوا ينسبون إلى عيسى عليه السلام صفة الألوهية، وهذا شِرك يعارض التوحيد، ثم استخدم المصدر (الموالاة) مع الجار والمجرور (على طاعته) للتذكير بضرورة الانصياع التام المستمرّ لله وطاعته دون فتور أو تلكّؤ، واختار (نفر من المسلمين) دون غيرها، لأن النفر يطلق على العدد القليل من ثلاثة إلى عشرة، وذلك أدعى للترحيب بالضيوف كونهم قلّة.

واختار حذف المفعول في قوله (وقد بلّغت ونصحت) وعدَل عن قول (وقد بلغتك ونصحتك) ولعل السبب في ذلك إرادة التعميم، وإرادة أن يعرف المخاطَب أن من صفات المخاطِب العامة التبليغ والنصح، وأنهما خالصان لا يشوبهما أمر دنيوي كنفع شخصي، وفي هذا تنبيه للمخاطب أيضًا بصدق ما جاء به الرسول، وكذلك فإن الأمر متروك للمخاطَب ليقرر بعد هذه الرسالة. كما ختم بقوله (والسلام على من اتبع الهدى) وقد اختار هذه القولة لتكون خاتمة الخطاب لأمور منها أنْ تناسب بداية الخطاب (سلام عليك)، وقد عرّف السلام في الختام في حين نكّره في البداية إيذانا بأن السلام في النهاية متعلق بالمستقبل، أي بما ينبني عليه قرار المخاطَب في قبول دعوة النبي أو رفضها، ثم اختار قوله (على من اتبع الهدى) لحثّ المخاطب على تحكيم العقل والقلب والتفكر في محتوى الرسالة قبل أن يصل إلى قرار.

وفيما يتعلق بالتموضع thematization الذي يعني: كيف رتّب المخاطب المعاني والحجج في خطابه، فنجد بداية أنّه ألبسه لبوس الرسائل (البسملة ثم التحية ثم مضمون الرسالة، ثم الختام بالدعاء)، وفي محتوى الرسالة اختار أن يرتّبه وفق ما يأتي:

1. الوصية بحمد الله وبعض صفاته؛ (فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن).

2. الإفصاح عن عقيدة المخاطِب في أمر يهم المخاطَبَ؛ (وأشهد أن عيسى روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده ونفخه).
3. القولة المحورية في الخطاب، وهي دعوة المخاطَب إلى اتباع الدين الجديد؛ (وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته وأن تتبعني فتؤمن بي، وبالذي جاءني؛ فإني رسول الله).
4. الحديث عن حامل الرسالة إلى المخاطَب والطلب بحسن وفادته؛ (وقد بعثت إليكم ابن عمي جعفرا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فاقْرِهم).
5. تكرار ما يُلزم تلبية الطلب المحوري للخطاب وهو عدم التجبر والدخول في الطاعة مع الجنود (ودع التجبّر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجل،).
6. التذكير بأن الرسول الكريم قد أدى المهمة التي كلف بها وهي تبليغ الدعوة، وقد أضاف إليها التوصية بقبولها لأنه وصف ما قام به بالنصيحة: (وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي).
7. الختام؛ وهو الدعاء بالسلام وتخصيصه بمن اتّبع الهدى؛ (والسلام على من اتّبع الهدى).

ب- مسلك التأليف

ففي مسالك التأليف: نجد أن ترتيب المعاني والحجج يظهر أن الخطاب مبني على الإيجاز، والوضوح، والترتيب المنطقي، فقد بدأ بما يجعل المتلقي يستحضر مكانة منشئ الخطاب، وأن كلامه مغاير لما هو معهود من المخاطبات في ذلك الزمن بين الدول؛ فالبسملة غير معهودة، وكذلك الابتداء بحمد الله وذكر صفاته، وكذلك إيراد أن المخاطِب هو رسول الله، ثم التخلص إلى تأسيس اتفاق مشترك على قضية قديمة هي قضية الاعتقاد بعيسى أمه عليهما السلام، فلما أبان المخاطِب ما لا يسع المخاطَبَ رفضُه، انتقل إلى الطلب (أفعال الكلام) وهو دعوة المخاطَب وأتباعه إلى الدين الجديد، ثم استطرد إلى الحديث عن الوفد المهاجر إلى الحبشة وأحدهم يحمل الرسالة إلى ملكها، ثم التفت إلى المخاطَب وحذه من التجبر اغترارا بجنوده، وقد دعاه مع جنوده إلى الخضوع وطاعة الله، وذكره بأن له في هذا الخطاب صفتين: المبلِّغ، وتعني أنه مكلف من الله بالتبليغ، وصفة النّاصح، وفيها الشفقة على المخاطَب من مغبّة التجبّر والرفض، وختم الخطاب بالسلام على الملك إن كان ممن يتبعون الهدى.

2. المسالك البيانية:

نلمح في الخطاب نزوعا نحو الوضوح، وابتعادًا من الغموض؛ فالرسالة لا تحتوي على أي معنى مستغلق أو يحتاج إلى معالجات وتفكّر لفهمه. ابتداءً بالبسملة وحمد الله، وانتقالًا إلى الحديث عن عيسى وأمّه عليهما السّلام، والطلب الذي ألقاه المخاطِب، وكذلك الحديث بخصوص الوفد، والنّهي عن التجبّر والاغترار، وانتهاء بالسلام.

3. مسالك السوق:

ويقصد بها كما مر القرائن الدّاخلية والخارجية التي ينصبها منشئ الخطاب ليدفع المخاطب إلى معنى معين دون سواه، وفي الرسالة نجد من القرائن الخارجية إرسال الوفد من بضعة أشخاص يحملون رسالة النبي الكريم، وهيئة الرسالة التي تقتضي سببا وجيها لإرسالها، وبالتالي تدفعه للاهتمام بها والتنبّه إلى كل ما فيها من معلومات ومطالب، وأمّا القرائن الداخلية فتتمثل في التصريح بأن المرسِل هو رسول الله، وهذا يدفع المخاطب إلى التفكّر في معنى أن يكون صاحب الخطاب مكلّفًا بمهمة من الله سبحانه وتعالى، وتقدير مدى أهمية هذا المخاطِب، وفي ذكر اسم النبي عليه السلام تنبيه إلى أن على المخاطِب التسليم بهذه الصفة المذكورة للمخاطِب، وفي ذكر صفة النجاشي كما سلف تنبيه على أن المرسِل مقرٌّ للمُخاطَب بملكه للحبشة، وهذا يدفعه إلى الاطمئنان على ما هو عليه من صفة الملك، وفي حديثه عن عيسى وأمّه عليهما السلام يدفع المخاطب إلى استبعاد صفة العداء من المخاطِب؛ لأنه يوافق على تقدير المذكورَين وهما المهمّان في عقيدة ملك الحبشة وشعبه، وفي حديثه عن قضية خلق عيسى يدفع المخاطَب إلى تقبل ما جاء به القرآن الكريم ودين الإسلام من حقيقة خلق عيسى وصفته البشرية، وفي ذكر خلق آدم عليه السلام دفعٌ للمخاطَب إلى المقارنة بين خلق عيسى وخلق آدم وأن خلق آدم من غير أبوين أصعب من خلق عيسى من أحدهما.

تأخذ الرسالة شكلا خاصًّا يمكن تسميته بمسلك التركيب، إذ إن الرسالة تتألف من بنيتين: **السند والمتن**. ولكل بنية طريقة خاصة في البناء؛ فهناك بنية السّند[20] وهو:(في كتاب عن أبي عبد الله الحافظ في الجزء الذي أجاز لي روايته عنه قال: أخبرني أبو الحسن محمد بن عبد الله الفقيه، بمرو قال: حدثنا حماد بن أحمد قال: حدثنا محمد بن حميد قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه كتابا:) وهي سلسلة من أسماء الأعلام مرتبطة بمنظومة من الألفاظ (أخبرني، حدثنا، قال، بعث، وكتب معه كتابًا...)، والسند يوثّق الصّلة بين نصّ الرسالة ومحيطها، وهو النصّ التاريخيّ الذي يحتوي عليها. وهو في الوقت نفسه يستحضر المرجعيّة الواقعيّة لنصّ الرسالة؛ فالسند يحيل على عالم خارجيّ، وبه **تعزّز قيمة الصّدق** للمتن ؛ أما متن الرسالة (فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بي وبالذي جاءني، فإني رسول الله، وقد بعثت إليكم ابن عمي

جعفرا، ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فاقرهم ودع التجبر فإني أدعوك وجنودك إلى الله وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي) هو بدوره ينقسم إلى بنيتين: بنية جهة الإرسال (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله)، ووجهة المرسَل إليه (إلى النجاشي الأصحم عظيم الحبشة،) والافتتاح (سلام عليك) وبنية نصّ الرسالة ثم الخاتمة (والسلام على من اتبع الهدى)، وقد تبين أثر هذا البناء في التأثير في المخاطَب.

ثالثًا: من المعنى إلى المقصد والغرض والغاية:

إنَّ المقصد العام الذي يقوم عليه النص هو بيان بعض عقائد الإسلام. وقد أظهر النصّ أسسًا رئيسة لهذا البيان وهي: (بيان أن المرسل هو رسول الله، وذكر صفات الله المختارة، بيان موقف الإسلام من عيسى وأمه اللذين لهما خصوصية لدى المخاطب، التصريح بدعوة المخاطب). **من المقصد إلى الغرض:**

إنَّ الغرض الرئيس من كلّ هذا النصّ هو دعوة النجاشي إلى عقيدة التوحيد. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ التحوّل من المقصد إلى الغرض يجاوره تحوّل في تقويم المسالك. ففي مستوى القصد اتّضح أنَّ المعنى والقصد لا يتأتّيان إلّا بالمسالك النظميّة التي ظهرت في بناء النص من التركيز على الجمل الإخبارية التوضيحية التي تبين الدّين الجديد وجوانب من عقيدة المؤمنين به، والأفعال الإنجازية التي اتخذت لبوس أسلوب الأمر.

وإنَّ الغاية المنشودة من هذه الرسالة هي نشر الإسلام في الحبشة. فكيف ستؤثر العمليّة الخطابيّة في النجاشي حتى تحمله على التحوّل من عقيدته الأصلية إلى عقيدة التوحيد بتنفيذ ما حوته رسالة النبي الكريم؟ كيف ستعمل اللغة على إعادة ترتيب العالم أي ترك عقيدة والتحول إلى أخرى. وكيف سيعمل المسلك النظمي والمسلك التأليفي على العمل باعتباره مسلكًا حجاجيًّا.

رابعًا: من المسلك البنائي إلى المسلك الحجاجي:

لا تنفصل المسالك الحجاجيّة في الرسالة عن المسلك النظمي؛ وسبب هذا الارتباط الشديد راجع إلى أن الحجاج قرين اللغة، وفي دراسة الحجاج يتناول الباحث عادة ثلاثة أنواع من الحجج وهي: حجة (الإيتوس) وتتصل بالمخاطِب، وحجة(اللوغوس) وتظهر في الوسائل اللغويّة التي يسلكها المخاطِب في خطابه، وحجة (الباتوس) وتتعلّق بالمخاطَب. فكيف تجلت هذه الأنواع في رسالة النبي الكريم إلى النجاشي؟

أ- حجة صورة الرسول في الرسالة (حجة الإيتوس):

يحمل كل خطاب صورة صاحبه من خلال المتلفّظ به في هذا الخطاب، وهذه الصورة تلوح بطريقتين (مباشرة وغير مباشرة)[21]، وهذه الصورة تمرّ بمرحلتين في ذهن المخاطَب ، مرحلة ما قبل الخطاب ومرحلة الخطاب ذاته؛ إذ إن المخاطَب يكون قد كوَّن في ذاته صورة ذهنية

للمخاطِب، حصل عليها مما تناهى إليه من أخبار عن منشئ الخطاب، ولا صعوبة علينا في تخمين تلك الصورة؛ فمنتج الخطاب قد شاعت أخباره وتجلّت صورته نبيًّا مرسلًا في المنطقة التي يقيم فيها، وفيما حولها، كما أن عداء مناوئيه قد ظهر وأشيع أيضًا، لا سيما أن الرسالة أرسلت في السنة السابعة للهجرة في سياق الكتب التي أرسلها النبي الكريم إلى الملوك في عصره، مما يجعل الجهل بالنبيّ وأخباره غير ممكن لدى المخاطَب.

وأما صورة النبيّ التي أظهرتها العلامات التلفظية في الرسالة فمنها أيضًا ما هو صريح كقوله: (من محمد رسول الله)، ومنها ما يشير إلى صورته بشيء من التأويل؛ فالمخاطِب يقول: (إني أحمد الله) و(أشهد أن عيسى روح الله وكلمته) و(إني أدعوك إلى الله) و(أن تتبعني فتؤمن بي) و(فإني رسول الله) و(بعثت إليكم ابن عمي) و(إني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل) و(قد بلّغت ونصحت)، ويتضح من العلامات النصية السابقة أن الرسالة قد صورت منشئ الخطاب وهو الرسول الكريم بصورة الحامد لله القابل للتكليف بمهمة الرسالة السماوية، القادر على أن يرسل وفدًا إلى ملوك عصره، يدعو الملوك وجنودهم إلى اتباعه، ويصرح بصفته على أنه مبلغ ناصح.

وقد تحققت كل متطلبات حجة الإيتوس في نص الرسالة؛ فالمخاطِب كما يظهر من الرسالة جدير بالثقة، ولديه المصداقية الكافية فيما يدعو له، وقد ظهرت مصداقيته من خلال قوله: (من محمد رسول الله) معتقدًا كونه متصفًا بهذه الصفة، وقولته تنبئ أصلًا أنه قد مرّ باختبارات كثيرة وتصديق فئة من الناس له وإنكار فئة أخرى، وقد دلّت صيغة الحمدلة وإتباعها بعدد من صفات الله عزّ وجلّ على هذا؛ ساعية لتأكيده في نفس المخاطَب، ثم المعرفة بحقيقة معجزة عيسى وآدم تزيد تقرير ذلك وترسيخه أيضًا، إذ ليس كلام المخاطِب إنشائيًّا بل ينطوي على معلومات دقيقة كانت تعدّ حساسة في وقت إنتاجها، خاصّة إذا علمنا أنّ حجج المشركين من قريش الذين جاؤوا إلى النجاشي لإقناعه بتسليمهم الوفد الذي أرسله الرسول كانت تتأسس على الطّعن بالدّين الجديد والقرآن الكريم الذي يعتقد – في زعمهم – بخلاف ما يعتقده النجاشي الملكُ وبطارقته. وكذلك يمكن القول بخصوص ما ذكره عن آدم عليه السلام، ويعد الاستشهاد بخبر عيسى وأمّه وآدم دليلًا على مصداقية صاحب الخطاب تستدعي الثقة بما يقول، يضاف إلى ذلك أن هذا الاستشهاد دليل أيضًا على علم منشئ الخطاب بأحوال المخاطَب وما يعتقده هو وأتباعه وجنوده، وعلمه بحال اعتقادهم يقابل أيضا خبرته بما يطلبه منهم من ضرورة استجابتهم لما هو من مصلحتهم، وذلك قوله (نصحت ، اقبلوا نصيحتي)؛ إذ لا ينصح عادة إلا الخبير العالم، وهذا من حجج الإيتوس وتصوير المخاطب لنفسه في أثناء الخطاب، كما يمكن أن يقال: إن تكرار ذكر المخاطِب أنه رسول الله ترسيخ لهذه الصّفة في نفس المخاطَب.

وقد حرص منشئ الخطاب على ذكر الوفد وضرورة الإحسان إليهم بالترحيب بوفادتهم، وهذا أيضًا من اكتمال صورة الإيتوس في الخطاب، لأن هذا إشارة إلى التواصل الفيزيائي بين طرفي الخطاب؛ فالموفدون لهم المكانة والأهمية لدى منشئ الخطاب، ويطلب من المخاطَب التواصل معهم والإحسان إليهم.

وقد ارتسمت هذه الصورة للرسول الكريم مع صفاته المذكورة في نص الرسالة في ذهن المخاطَب؛ فكيف كانت صورة هذا المخاطَب من خلال نص الرسالة؟

ب- حجة الباتوس في الرسالة:

تعدّ حجة الباتوس من أنواع الحجج الثلاث لدى أرسطو، ويقصد بها طرائق المتكلم في التأثير العاطفي في الجمهور، وخلق التواصل العاطفي بين الطرفين، إنه الطريقة التي يحاول بها التأثير في المشاعر مثل إثارة التعاطف أو تمكين الخوف أو الطمع أو الرضا وغير ذلك، وتصبح هذه الحجة غير فعالة وقد تنقلب إلى ضدها إذا لم تكن مغلفة بالمسؤولية الأخلاقية من المتكلم، وفي هذا السياق تتضح في خطاب الرسول المسؤولية الأخلاقية من خلال:

1. الجدية الحافّة بالخطاب وطريقة حمله من المخاطِب إلى المخاطَب، يقصد بذلك جعفر بن أبي طالب ابن عمّ النبي الكريم، وأنه في وفد (مفهوم الجماعة يزيد من أهمية الرسالة) ، وكذلك بعد المسافة بين مكان منشئ الخطاب والمحمول إليه تقضي بأهمية الرسالة أيضًا، ولا يخفى أن هذا يظهر للمخاطَب صفة الاحترام التي يكِنُّها منشئ الخطاب له؛ فالرسالة مع وفد، ويراس الوفد ابن عم النبي عليه السلام، ولو كان المخاطَب رجلًا عاديًا لما تهيّأ أن يتلقى مثل هذا الاحترام.
2. ذكر صفة المخاطَب بأنه ملك، وهذا استثارة للمشاعر التي تصاحبه بكونه ملكًا، وإقرار كما سلف من المخاطِب بذلك.
3. ذكر ما يعتقده المخاطب على أنه ما جاء به الدين الجديد عينه، والمقصود هو الموقف من عيسى وأمه عليهما السلام، وفي هذا اهتمام من المخاطِب بالمخاطَب وتقصّي معتقده ومعتقد قومه، وفي النتيجة سيكون ذلك أدعى أن يصغي المخاطَب إلى الخطاب.
4. تذكير المخاطَب بأنه ملك وحق الملك أن يكرم الوفود وحاملي الرسائل، وفيه احترام للمخاطب.

وقد تجلّت حجة الباتوس في الخطاب في المظاهر التي وردت فيه من رفق منشئه بالمخاطَب، من مثل تكرار لفظ النصيحة بصيغتين (نصحت، نصيحتي) واستخدام هذه الصيغة يهدف إلى جذب تعاطف المخاطَب، فالناصح شفيق محبّ، والمنصوح مهمّ لدى من ينصحه. ومن العلامات التلفظية التي استخدمها منشئ الرسالة لتدل على الشفقة صفات الله (الرحمن، الرحيم) والعلامات التي فيها التودد (سلام الله عليك، السلام على من اتبع الهدى) وذكر من لهم أهمية لدى المخاطَب بصفات محببة (مريم البتول، الطيبة، الحصينة)، وإطلاق هذه العلامات يشير إلى أن منشئ الخطاب يعلم حال المخاطَب، ويعرف ما الذي يهزّه ويؤثر فيه وما يغيره ويقنعه، لأنه يكون على معرفة بنوازعه، والباتوس هو توظيف ذلك في الخطاب وجذب المخاطَب إلى الحجج والاقتناع بها.

ب– حجة اللوغوس في رسالة النبي الكريم إلى النجاشي:

النوع الثالث من الحجج التي تلازم أي خطاب هي حجج العقل والمنطق، وتجلياتها في الخطابات أكثر من أن تحصى، لأن العقل يداوم على ابتكار الحجج المنطقية موظفًا ما استقر في عرف الناس من حقائق أجمعوا عليها، وهذه الحقائق تزداد يومًا بعد يوم، يضاف إلى الحقائق الطرائق المنطقية في سوق الأدلة والبراهين على ما يدعو إليه الخطاب، كالاستنتاج الاستدلالي، والاستنتاج الاستقرائي، والإحصائيات، والتشابه، وذكر المقدمات الموصلة إلى نتائج محددة لا يملك عقل المخاطَب إلا أن يقبلها، إضافة إلى استثمار طاقة اللغة وتعابيرها المباشرة أحيانًا والأدبية غير المباشرة أحيانًا أخرى .

وفي رسالة النبي عليه السلام إلى النجاشي نجد أن الرسالة استخدمت أنواعًا من الحجج العقلية والبراهين المنطقية التي استثمرت طاقة اللغة وطرائق تعبيرها وتنوع أساليبها؛ فمثلا إنَّ اختيار (رسول الله)، (أشهد) في الجمل التأسيسيّة للرسالة تعد دعامة رئيسة لإقناع المخاطب. فجملتا (سلم أنت) و(**إني أحمد الله إليك**) تعملان باعتبارهما مقدمة من المقدمات الحجاجيّة التي يقدّمها المتكلّم لسامعه ليحمله على التصديق والاقتناع. والرسول الكريم وضع هاتين الحقيقتين لربطهما بفحوى الدعوة، ومن المتوقع أنَّ النجاشي سيسلم بهذه المقدّمة لا سيما أنها أتبعت بجمل توضح ما يعتقده المخاطِبُ فيما هو من صلب عقيدة المخاطَب؛ بل هو مسلّم به قبل الخطاب، والسبب هو أنَّ هذه المقدمة تعدّ من الحقائق الدينيّة المشتركة بين الرّسول والنجاشي. وبناء على ذلك فإنَّ هذه الجمل تؤدّي وظيفتين رئيستين في خطاب الرسالة: الأولى: إخبار المخاطب بعقيدة المخاطِب وصفته، أمَّا الثانية فهي حمل المخاطب على القبول بما يدعو له المخاطِب.

والمقدمات التي استخدمها المخاطِب هي مقدمات عامّة وأخرى خاصة؛ فالعامّة هي التصريح بجهة الإرسال وتسمية المرسل إليه والبسملة والسلام، وهي مقدمات هدفها طمأنة المخاطَب إلى إن صاحب الرسالة ملتزم بحدود اللباقة والدبلوماسية التي تجعل ما سيقوله في صلب الرسالة جديرًا بالاهتمام، ثم هناك الخاصة التي تتعلق بالحديث عن عيسى وأمّه وآدم عليهم السلام، وهدفها التدليل على معرفة صاحب الرسالة بقضايا مشتركة بين طرفي الخطاب، وطمأنة المخاطَب إلى عدم انتقاد ما يتعلق بهذه المشتركات ونفي كلّ ما يمكن أن يردَ من وهم الخلاف في الموقفين، وهذه المقدمات الخاصة انبنى عليها أن الإقرار بها يوصل إلى المطلوب وهو توحيد الله وطاعته والإيمان بنبوة مرسِل الخطاب، وقد عبر عن محصلة هذا بقوله: (فإني رسول الله) ونبنى على الدعوة طلب مستلزماتها وأهمها ترك التجبر والطغيان، والدخول في الطاعة ملكًا وأتباعا وجنودًا، وجاءت بعد ذلك الإشارة إلى مضمون الرسالة بوصفه من النصح والتبليغ.

استخدم المخاطِب أسلوب التوكيد في الخطاب (فإني)، وتكرر صفات الله عز وجل (الله الملك القدوس المؤمن المهيمن)، و(أن عيسى) وتكرر صفات عيسى (روح الله وكلمته) مريم (البتول، الطاهرة) و (إني أدعوك) و(فإني رسول الله) و(قد بعثت) و(فإني أدعوك) و(قد بلغت) وقد تنوعت اساليبه كما هو واضح، والمقصد من التوكيد عدة أمور منها تنبيه المخاطَب إلى أهمية المحمولات في القولات التي جرى

فيها التوكيد، وبالنظر إلى ما أكدد في خطاب النبي عليه السلام: (رسول الله[أكدت مرتين]) (صفات الله) (صفات عيسى) (صفات مريم) (إني أدعوك[أكدت مرتين بالتكرار])، ومن أسباب استخدام التوكيد نقل نية المخاطِب مصحوبة بالمعاني التي يريد إيصالها، إضافة إلى توضيح مشاعر المخاطِب تجاه المخاطَب والقضية التي يحملها الخطاب، وقد ظهر من استخدام أسلوب التوكيد بكثرة في رسالة النبي أن مشاعر الحرص على هداية المخاطَب كانت ترافق معاني الخطاب، إضافة إلى محاولة تعزيز الإقناع الذي ترافق فيه التوكيد مع إيراد الشواهد والأدلة على صدق دعوة المخاطِب ومعرفته بتفاصيل القضية التي يدعو إليها.

4. خاتمة:

بعد هذه الجولة مع الرسالة، وتطبيق أدوات هذه النظرية عليها، يمكن القول إن النظرية واضحة الأدوات والإجراءات، وإن مراحل تطبيقها متسلسلة منطقيا؛ فالدارس يدرس المرجعيات أولًا ثم المسالك، وينتهي بالحجاج والأغراض والمقاصد، وقد جرت دراسة هذه العناصر في الرسالة، وتوصل الدارس إلى أن خطاب الرسالة قد تضمن كل الوسائل المعينة على جعل خطابه قويًّا، وأن المرجعيات قد كشفت عن صلة الخطاب بخلفياته التي تعدّ أبعادًا حقيقية للكشف عن معناه وبنيته، وأن المسالك التي سلكها في البناء والتأليف توافرات على العديد من التفاصيل التي كشفتها الدراسة مما يوضح مقاصد هذا الخطاب وأغراضه وغاياته.

وعلى الرغم من وضوح الخطوات ومنطقيتها، لم تظهر للباحث سلبيات هذا النهج من الدراسات، ولعل مما يمكن أن يلمح إليه ولا أدلة واضحة تؤيّد الحكم به، صفة الآلية في التطبيق، فالتحليل يكشف التفاصيل، ولكنه لا ينفي التساؤل عن أن يقال: إن النتائج التي يصل إليها تحليل خطاب آخر من ذات العصر ستكون متطابقة مع هذه النتائج. هذا أمر منوط بإجراء عدد لا بأس به من الأبحاث في هذا الإطار للوصول إلى حكم نهائي على هذه النظرية.

5. قائمة المراجع:

- ابن الأثير الشيباني الجزري، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، أُسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: عادل أحمد الرفاعي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 1996 م.
- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ط5، 1997م.
- الحلبي، علي بن إبراهيم بن أحمد، السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المؤلف: أبو الفرج، نور الدين ابن برهان الدين (المتوفى: 1044هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية – 1427هـ.

- الزرقاني، أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي بن يوسف بن أحمد بن شهاب الدين بن محمد المالكي، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1996م.
- صولة، عبدالله: في نظريّة الحجاج، مسكلياني للنشر، تونس، ط1، 2011.
- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر، تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، ومعه:(صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي)، دار التراث – بيروت، ط2،– 1387 هـ.
- العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله، التبيان في إعراب القرآن، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر.
- القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.
- القلقشندي القاهري، أحمد بن علي بن أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط1، 1987.
- مشبال، محمد، بلاغة النص النثري العربي القديم – المبادئ والمكونات، مجلة أنساق العدد التجريبي 2017، ص 39.
- يونس، محمد محمد، تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو نظريّة المسالك والغايات، دار كنوز المعرفة، للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط1، 2016.

الهوامش

[1] – محمد محمد يونس علي، تحليل الخطاب وتجاوز المعنى: نحو نظريّة المسالك والغايات، دار كنوز المعرفة، للنشر والتوزيع، عمان– الأردن، ط1، 2016.

[2] – راجع المرجع نفسه، ص 27– 66.

[3] جمهرة رسائل العرب، أحمد زكي صفوت، 41/1، عن: السيرة الحلبية 369/2، تاريخ الطبري 89/3، صبح الأعشى 379/6، أسد الغابة 62/1.

[4] تحليل الخطاب وتجاوز المعنى، محمد محمد يونس، 27.

[5] مسند أحمد 290/5 حديث رقم 22865 .

[6] تحليل الخطاب وتجاوز المعنى 39.

[7] المرجع السابق نقلًا عن: Barbara Johnstone, Discourse Analysis (Oxford: Blackwell, 2002), (p.10.

[8] – المرجع نفسه، ص46.

[9] جمهرة رسائل العرب 40/1.

[10] السيرة الحلبية 347/3.

[11] تاريخ الطبري 130/2.

[12] صبح الأعشى 364/6.

[13] أسد الغابة 97/1.

[14] إعجاز القرآن 134.

[15] المواهب اللدنية 543/1.

[16] شرح الزرقاني على المواهب اللدنية 19/5.

[17] ينظر في الحديث عن هذه المسالك وطرائق اشتغالها في الخطاب كتاب تحليل الخطاب وتجاوز المعنى، محمد يونس 101 وما بعدها.

[18] – المرجع نفسه : 106.

[19] التبيان في إعراب القرآن للعكبري 3/1.

[20] دلائل النبوة للبيهقي 2/ 309.

[21] مشبال، محمد، بلاغة النص النثري العربي القديم – المبادئ والمكونات، مجلة أنساق العدد التجريبي 2017، ص 39.